منارات
manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5185) السنة التاسعة عشرة - الاربعاء (18) أيار 2022

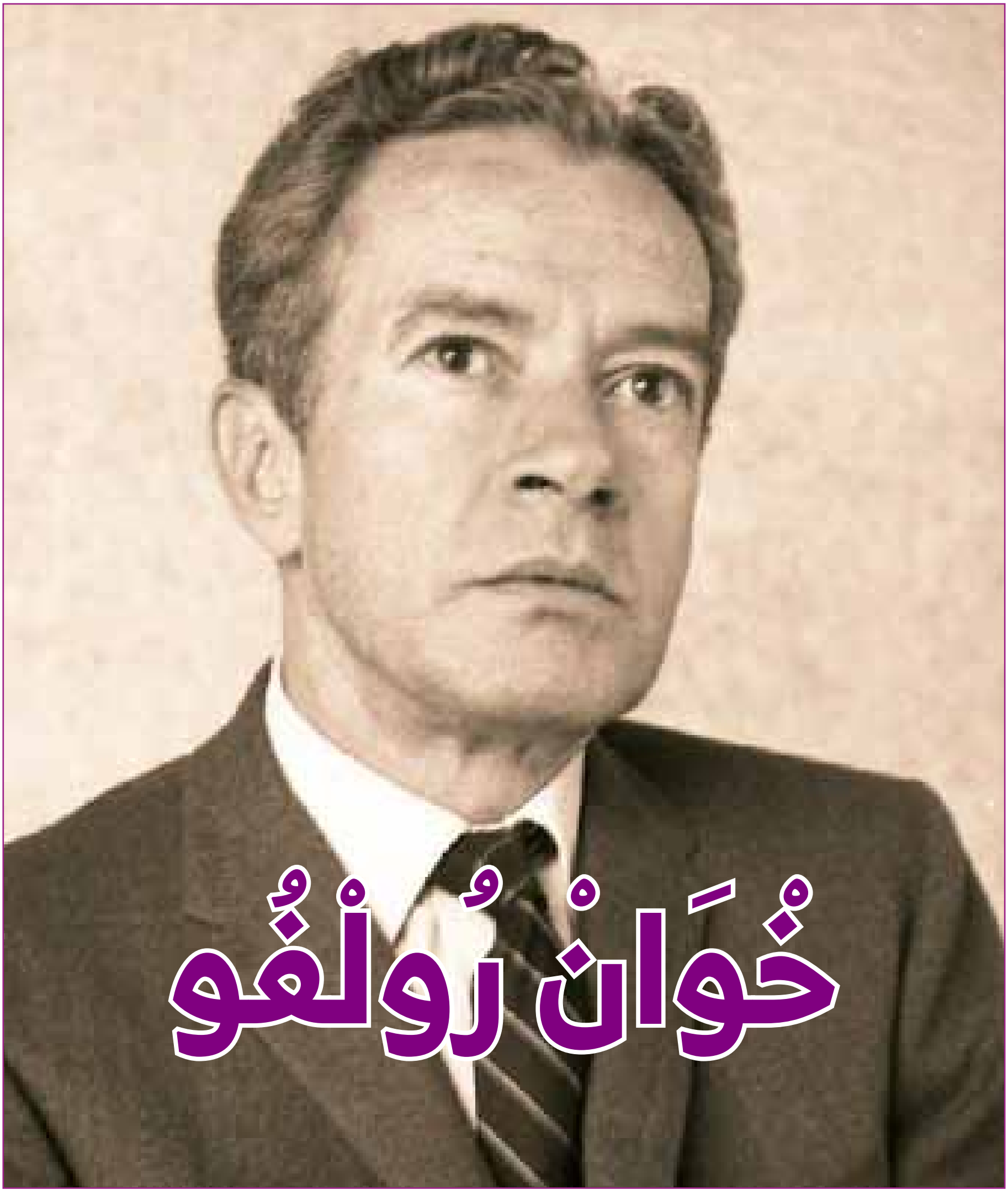

خُوَانْ رُولْفُو

الكَاتبُ المكسيكيّ خْوَانْ رُولْفُو.. مَتَاهَاتُ الصَّمْتِ أو صَمْتُ المَتَاهَات !

د. محمّد محمّد الخطّابي

"هـواء التّلال".كتـاب يحتـوي علـى 81 رسـالة كتبها الكاتـب المكسيكـي الذّائـع الصّيـت خوان رولفـو ما بين 1946 و 1950، تكشـف لنـا عـن جوانب غـير معروفة فـى حياة هـذا الكاتـب الكبير في شـبابه، هذه الرسـائل التي وجّهها إلى زوجته (كلارا أباريسّيُو) يحفل بالمعاني الجليلة،والمشـاعر الجميلة،وصـور المعاناة،ومشـاهد الحياة اليومية القاسـية لكاتب فى مقتبل العمر، وشـرخ الشـباب، وريعانـه، كان فى ذلك الإبّـان لمّا يَـزَلْ نكرةً فى عـالم الخلق، والعطـاء، والإبداع، يقول الناقد الاسـباني "كارلوسـ بلانكو أغينارا" عن هذا الكاتب المُبدع: إننا نجـد في أدب رولفـو دائمـاً شخصـيات مّـا تتحـدث، أو بالأحرى تهمس كما هو الحال في بطله "بيدرو بارامو"، ففي القصّة يصل "خوان برسيادو" إلى "كومالا" باحثاً عـن والده، ويـذرع الشّـوارعَ الغارقة في ضبـاب كثيف، ويكتشـف أنّ مخاطبيـه لا وجود لهـم، إذ أنّهم فيً الواقع قد فارقوا الحيـاة منذ مدّة وهـم الآن أرواح هائمة،تائهة تبحـث عـن أحـد الأحيـاء لتصليٍّ مـن أجله، ثـم يكتشـف "برسيـادو" شيئـاً آخر،غريباً ومثـيراً للإنتباه، جميع الذيـن يلتقي بهم مـن الغربـاء إلاّ أنّهم يعاملونـه معاملة حميميـة عائلية، لأنه في الواقع ينتمـي لعالمهم، إذ يموت البطـل بالفعل في الصفحـة 73 من الكتاب، لكـن القصّة تستمرّ باستعمال أصوات مستقلة.!

كلمات كأنّها مُجترّة بفعل هبُوب الرّياح

يؤكّـد الناقد "خوان بيغورو" من جهته، أنّ خوان رولفو يفجّر الكلام العامـي في البادية المكسيكية، وهو يحرص علـى أن تصـل الكلمـات إلى المتلقـيٍّ في طلاقة،وعفويّة، وتلقائيّـة، وإنسيـاب ومن دون قيود، حيـث تغدو كلماته وكأنّهـا مجـترّة بفعل هبوب الرّيـاح. وفي قصص إحدى روائعه الأخرى وهي "السّهل الملتهب"، يكمن عمق وقوّة هذه القصـص في حوارياتها وفي إطلاق العنان للضمير مـن عتمة الليـالي الحالكة في شكل ذبذبـات صوتية تكاد لا تُسمـع، حيـث يخيّـل للسّامـع وكأنّ ناطقيهـا لا صوت لهـم. إنّها أصـوات خالية مـن أدنى حشرجـة أو ضجيج أو بهرجة،.وقد أشـار بعض الدارسين لأعمال رولفو إلى أنّ الكاتـب كان يستنـد إلي تجربتـه الشخصية،ويستقي مـن حياتـه الحميميـة المعاشـة في حظـيرة عائلتـه،أو مُحيطه،،فيعيـد سرد الحكايات ذاتها التـي سمعها من فم رجـال قريتـه. إن قمّة معانـاة رولفو تتجسّـد بالفعل في هـذا الأسلوب الآسر العميق المشحـون بالأفكار المحيّرة، فقـد إخترع رولفـو طريقة رمزية لنعت هـؤلاء المنكودين مـن المعذّبـين في الأرضـ المنتشريـن في أماكن،بعيـدة هامشيّـة، وفـى أصقاع نائية مهجـورة، إختفـى فيها كلّ الناسـ، وإمّحـى فيهـا كلّ أثـر للحيـاة، إختفـى كلّ شئ حتـى كلابها، فلم يعد هنـاك من نباح أو صيـاح،أو نواح أو إجتيـاح في وجه الصّمت القاتل اَلمُطبق، بعضّ أبطاله أناس وشخّصيات منبوذة في التاريخ، أناس غارقون في البؤسـ والتعاسة حتى أصبحوا لا يهابون أيّ شيء. في هذا الجـوّ المضطـرب، وفي خضمّ هذا العنـف الخارجي للحياة في الأجـواء البائسة والصامتـة للقرى والمداشر المكسيكية النائية، تتحرّك هذه الشخصيات التي ينعكس عليهـا، وعلى طباعها، وتصرّفاتها كل ما تراه، أو تسمعه، أو تلمسه،أو تعيه.

رولفو بعيُون غُونتر غراس

عندمـا وصـل خـوان رولفـو عـام 1982 إلى قاعـة المهرجـان الأدبـي العالمـي ببرلـين الغربيـة إكتشـف أنه قـد نسي نظارتـه للقراءة عـن قـرب، وصارالحضور من كلّ نـوع، ومـن مختلف أصقـاع المعمورة يتطلعـون إليه بشغـف، ويترقبون ما سوف يقوله لهـم صاحب "بيدرو بارامـو" و" السّهل المُلتهب" الـذي كان جالساً إلى جانب الشاعر الالمـاني الرّاحل مؤخّراً غونـتر غراس، فاستعار رولفو نظارةَ غراس، وقال للحضور متواضعاً إنّه سوف يقرأ عرضه بعيون معلّمه..!.

إن رولفـو مثـل ثعلـب صديقـه الكاتـب الهونـدوري الكبير"أوغوستـو مونطيرّوسـو" الـذي يطلـب مـن الثعلـب كتابـة قصّة ثانيـة، ويكتب الثعلب قصـة رائعة، ويعـود ليطلـب منـه المعجبون بـه أن يكتب قصـة ثالثة، وذلـك في محاولـة منهـم لاستدراجـه للفشـل والتكرار، ويكتشـف الثعلب المكيدة، ويقرّر إلتزام الصّمت. وهذا ما حدث لرولفو بالفعل، وكأنّ قصّة مونطيروسو مستوحاة مـن حيـاة رولفـو نفسـه، وهـي مُدرجة ضمـن مجموعة أوغوستـو مونطيرّوسـو التـي تحمـل عنـوان "الشـاة السوداء وحكايات أخرى"، لقد إلتزم رولفو الصّمت بعد أن أدرك قمّة سلّم المجد الأدبي بعمليه المقتضبين الرائعين "بيـدرو بارامـو"، و"السهـل الملتهب" الذيـن أكّد بهما للعالم أجمع أنّ الأدب الحقّ هو بالفعل ما قلّ ودلّ، وليس بالهذر طوّلت خطبُه.

مِنْ عاملٍ فى مَصْنَع إلى مَقام سُوفُوكْلِيسْ..!

خـوان رولفـو لم يفكّر قَـطّ في حياته نشر كتـاب "هواء التـلال" المتضمّـن لرسائلـه إلى زوجتـه "كلارا" التـي وجّهـا إليهـا وهـي بعـد في مقتبـل العمـر. تحفـل هذه الرسائـل بـالأدب الرفيـع، والتحليـل الدقيـق لمجريـات الحيـاة وتسجيـل كل مـا يجـري ويدورحولـه في تلـك الفترة من حياتـه. في إحدى الرسائل التـي كتبها رولفو لـكلارا عام 1941، يقول عن أحـد المصانع المطّاطيّة التي كان يعمـل بهـا: "إنّهم (العمّال) ليسـ في مقدورهم رؤية السمـاء، يعيشون في الظلّ الذي يـزداد ظلاماً وحلكة من فرط كثافة الدّخان المتصاعد، يعيشون وقد إكتسب لونهم السّـواد لمدّة ثماني ساعات متوالية خـلال الليل والنهار، كمـا لـو لم يكـن هنـاك وجـود للشمسـ أو السّحـاب في السّماء، كما لو لم يكن هناك هواء نقيّ ليستنشقوه. هكذا دائماً من دون كلل حتى يوم مماتهم، حين يرتاحون. إنني أحكـي لك عمّا يجري مـع عمّال هذا المصنـع الذي يغشاه الدخان من كل جانب،وتنبعث منه رائحة كريهة، ومع ذلك هـم يعملون تحت رقابة مشدّدة كأن لم تكفهم تلك الماكنات العملاقـة التـي لا تعـرف سـلام التنفس، وأظـنّ أنني لن أتحمّـل طويلاً بأن أكون ذلـك العريف الذي يريدونني أن أكونـه في هذا المصنع. إن مجـرّد التفكير في العمل بهذه الطريقـة يزجّ بي في دهاليز أحزان لا قرار لها، ويجعلني أشعر بمرارة، إلاّ أنّ التفكير فقط في أنّك موجودة يُقصي عنّـي تلـك الأحـزان، ويبعد عني تلـك المَـرارة الكريهة".

وجـاءت في إحـدى الرسائـل هـذه المقطوعـة: "اليـوم جئـت منك إليـك مشـدوداً إلى ظلّـك، متأملاً الليـل، أنظر إلى السّحاب السّابح وسـط الظلام كدموع تحيط بالقمر البهيج،الأشجـار حالكـة، والنجـوم رخوة اليـوم، رأيت كيف كان الليل عالياً جدّاً في كلّ مكان، وتوقفت أحدّق فيه كمن يتوقّف عن المشي بعد أن أضناه المسير".

على ضفاف وادي الحجارة المكسيكي

تقـول "كلارا" إنّ كتَاب "هواء التـلال" الذي نشر بعد رحيل خوان رولفو، يلقي الضوء على العديد من القضايا التـي لهـا صلة بكتاباته، وبـه شخصياً مثـل إدّعاء بعض النقـاد بأنـه كاتب بـرز في غضـون سنتين، وأنـه لم يكن يجيـد الكتابة قبل ذلك، خاصّة أنه كان يعمل داخل مصنع للعجـلات المطّاطيـة. و نكتشف في هذا الكتـاب أن بعض مضامـين قصصـه التي حقّقت نجاحـاً باهـراً، وإنتشاراً منقطـع النظـير كانت تـدور بخلده منذ ذلـك الأوان، مثل قصتـه الشّهـيرة "بيـدرو بارامـو"، حيـث كان يفكّر في وضـع عنوان آخر لها وهو "نجمـة إلى جانب القمر" أو "همسات". وتلقي هذه الرسائل الضوء من جهة أخرى علـى كيفية ولادة هذا الكاتب، كمـا تتضمّن حقائق مثيرة عن حياته في طور الشباب تتنافى مع ما قيل عنه في بلده المكسيـك. وتشـير "كلارا" إلى أنّ زوجها كافح،وناضل، وعمـل كثـيراً حتى أصبـح كاتبـا ذا شأن كبـير في بلده، إنـه كان في حاجـة إلى مَن يشدّ أزرَه وسـط هذا الخضمّ الهائل، وكانت كلارا تشجّعه على المضيّ قدماً في السبيل الـذي إختـاره لنفسه،وكانت تقـول له دائمـاً: "كافح من أجل شيء أحببته".

لقـد أحبّ رولفـو كلارا عندما كانت تبلغ مـن العمر ثلاثة عشـر ربيعـا، واشترطـت عليـه أن يتريّث ويصبر مدّة ثـلاث سنوات ليصبحـا خطيبين. وكان رولفـو قد تعرّف علـى زوجته في محل لبيع المثلجـات (البوظة) في مدينة "وادي الحجـارة" لمكسيكيـة، وكانـت تصغـره بعشـر سنوات. وتشير كلارا إلى أنّ جميع الرسائل التي وجّهها إليهـا زوجُهـا تحتلّ مكانـاً خاصـا في قلبها، وقـد قرأتها عـدّة مـرّات وكانت تحتفظ بهـا، من دون علـم منه، حيث لم يسألهـا قطّ عنها. قـال لها ذات مرّة عندمـا أهداها أحدَ كتبـه: هذا الكتاب مكتوب على هيئة صورتك، ولقد تألقت صفحاته بقلبك.

تعرّضـ رولفـو لتهجمـات عنيفـة مـن طـرف معاصريه مـن الكتّـاب المكسيكيـين، وقـد بلـغ بـه الأمـر في بعض الأحيـان أن مـزّق قصصـاً كان قـد كتبها من فـرط حزنه، وتعاسته،ونكـده. لقـد كتـب ذات مرّة يقـول لزوجته في هذا السّياق: "إننا نعيش في عالم تملأه البقرات الهزيلة، حيث نـرى أنّ الفقراء يزدادون فقـراً، والأغنياء تنتقص وتبتزّ ثرواتهـم، إلاّ أننا لم نختر هذا الزّمن الذي نعيشه، بل لقد فُرض علينا فرضاً، لقد وُلدنا بأعجوبة، وترعرعنا بأعجوبـة، وهـذه الحيـاة التـي مـا زالت توهـب لنا هي شـيء شبيه بالمعجـزة، ولهذا فأنـا لا أشـكّ، خاصّة الآن، أننـا نحن الاثنين معاً، سنصبح قوّتين لنتحمّل قوة الحبّ والسعـادة، أو ثقـل الحـزن والألم أو أي شيء آخر قادم، هكـذا سنكون أنا وأنـت صديقين حميمـين يُدعيان كلارا وخـوان، سنكـون كصخـرة صامـدة في وجـه التيّارات العاتيـة، والأنهار الجارية الجارفـة، متآزرين بثبات ضدّ كلّ شيء، سنضع أو نصنع عالماً خاصاً بنا، عالمك وعالمي، هـذا مـا أرجوه لـك، أن أمنحك كلّ ما هو موجـود، إلاّ أنه يتعـذّر علينـا أن نصبـح مثل الآلهـة، فنحن لسنـا سوى مخلوقـات بشرية تعيسة، وعلينا أن نطلب من الخالق أن ينظر إلى حالنا."

غارسيا مركيز وخوان رولفو

لقـد وصـف الكاتب الكولومبـي الكبير غابرييـل غارسيا ماركيـز (الحاصل علـى جائزة نوبل فـى الآداب 1982) الثلاثمائـة صفحة التـي تتألف منها أعمـال رولفو، بأنّها قد وضعته في مصافّ أعمال سوفوكليس. ويرى الكاتب الاسبـاني خوان بونيا أن الفرق بين رسائل خوان رولفو إلى كلارا أبارسيّـو، ورسائـل غوستـاف فلوبـير إلى لويـز كويـير واضح، فأنـت في مقدورك أن تقـرأ رسائل فلوبـير وتستمتـع بها بصمت حتى ولـو لم تكن قد قرأت "مدام بوفاري"، إلاّ أنّ الذي لم يسبق له أن قرأ "بيدرو بارامـو" أو "السّهـل الملتهب" ويشعر بالتـالي بإعجاب كبـير مسّبق نحو هـذا الكاتب الفذّ، قـد لا يستمتع بعمق بهذه الرسائل الفريدة.

يقـول رولفو عن عائلته:كانـت أسرة متعـدّدة الأفراد، لم يعيشوا قطّ فترات سلام في حياتهم، كانوا كلّهم يموتون في سـنّ مبكّرة،وجميعهـم ماتوا بطعنة مـن الخلف، وأنّ أحـدَ أفـراد عائلتـه، وهـو دافيد قتلـه جواد والـده، مات مغتـالاً مثـل إمليانو ساباتـا، وسانشو فيّيـا، كلّهم ماتوا علـى أثر كمين نُصِب لهم، كلّهم ماتوا في الثالثة والثلاثين من عمرهم.!

كـم أنت محقّ يا "غابرييـل" أجل..ثلاثمائة صفحة فقط من الإنتـاج الأدبي المُبدع وضعت هذا العامل البسيط في مصنع للعجلات المطّاطية وهو "خوان رولفو" في مصافّ أحـد أقطاب المسـرح اليوناني الشّهـير سوفوكليس. ولا عجـب إن كان الذي يقول هذا هو الكاتب العالمي الحاصل على نوبل فـى الآداب، "غابرييل غارسيا ماركيز" نفسه، خاصّـة إذا علمنـا أنّ بلديّه ومواطنـه الكاتب الكولومبي الكبـير الراحل "ألفارو موتيسـ" عندما أهدى إليه لأوّل مرّة كتاب "بيدرو بارامو" لرُولفو، ناوله إيّاه وهو يقول له: خُذْ تعلّم.!

×كاتب،وباحث، ومترجم من المغرب، عضـو الأكاديمية الإسـبانية – الأمريكية للآداب والعلوم – بوغوتا– (كولومبيا).

عن جريدة القدس العربي

بيدرو بارامو - خوان رولفو

حسين الضو

" كتاباته المنشورة مجتمعة لا تتجاوز ٣٠٠ صفحة، لكنها كما أعتقد تماثل ما نعرفه من أعمال سوفكلس، عدداً واستمرارية". هذا ما قاله الروائي الكولومبي الحائز على جائزة نوبل، جابرييل غارسيا ماركيز عن المكسيكي خوان رولفو صاحب الرواية الوحيدة "بيدرو بارامو". وعن الرواية قال ماركيز أنها عبّدت طريقه لبناء رائعته "مئة عام من العزلة" وادعى أنه يستطيع سرد العمل عن ظهر قلب، وبالمقلوب أيضاً. ومن يقرأها يجد أن ماركيز لم يكن يبالغ على الإطلاق، فهي رواية -بالرغم من قِصَرها- يصعب الإمساك بها، وغزيرة فنياً وموضوعاتياً. وهي لا شك تنتمي لروايات الواحدة أو الروايات اليتيمة التي كُتبت كصرخة وحيدة مدوية لكتّابها ولا زال صداها يرن في الأوساط الأدبية والنقدية، مثل "ذهب مع الريح" و"الحارس في حقل الشوفان" و"صورة دوريان غراي"، وعربياً "الحزام"، وغيرها اللاتي فاقت شهرتهم شهرة مؤلفيها. وهنا دليل بأن الإضافية الثقافية الحقيقية للمكتبة الأدبية هي نوعية وليست كمية.

ارتباط اسم ماركيز بخوان رولفو يؤكد التوقع بالغرائبية والواقعية السحرية في العمل. تلك الأجواء التي يتجاور فيها السريالي بالواقعي، ويتسرب جزء من كليهما باتجاه الآخر بشكل متزامن. فالرواية تبدأ باحتضار أم خوان بريثيادو، وتوصيتها لابنها أن يرحل إلى كومالا، حيث يعيش أبوه خوان بارامو، وأن يطالبه بتعويض نسيانه وعدم اهتمامه له ولأمه. ولكن حين يلتقي خوان بأحد البغّالين، أبونديو، ويوصله إلى كومالا، يكتشف أن بيدرو بارامو قد مات منذ سنوات عديدة وأن المدينة كلها مجرد بقعة مهملة وقرية مهجورة تهيم فيها الأرواح، فتبدأ بعد ذلك رحلة خوان مع الأرواح التي تقطن البلدة، والأصوات التي تخرج من شقوق والجدران، من خلال سرد يشبه الحقيقة والحلم والهذيان.

"من يشهد على الشاهد؟"

"من المستحيل أن نكذب الموتى"

تبادرت إلى ذهني هذه الافتتاحية من رواية "تريستانو يُحتضر" لأنطونيو تابوكي أثناء قراءتي لـ"بيدرو بارامو"، إذ تشكل هذه المقولة ركيزة رئيسة في أسلوب السرد لدى رولفو من حيث زاوية النظر والموثوقية، فالسرد تمثل في تصوير حيوات الأرواح التي تسكن المكان كما لو أنها حية، وجاءت على ألسن مختلفة بشكل متداخل وذات انتقال "شبحي" بين الأصوات، ولهذا قد يبدو سفر خوان للوهلة الأولى مكانيا أو جغرافيا، إلى كومالا، بينما في الحقيقة كان سفره زمنيا عبر ذاكرة وتاريخ تلك المدينة، وما فعلته عائلة بارامو بها. وأسلوب السرد يتناسب مع هذه القراءة التاريخية للمدينة فجاء متعدد الزوايا لينقل الأحداث بصورة بانورامية، أعضاؤها كانت ذكريات الأموات.

تشبه هذه الرواية الكثير من أعمال الأدب اللاتيني ذات الشخصيات الكثيرة والخط الزمني المبعثر، حيث تمضي الحبكة بخط متعرج ومتصل، تكون كل انعطافة فيه حبكة ثانوية بشخصيات مختلفة وأحداث في زمن مختلف عما سبق، وبختام الرواية تكون هذه الحبكات تامة ولكن متفرقة في ذهن القارئ، يحتاج لترتيبها زمنياً ليستطيع سد الثغرات التي لمح لها السارد ولم يقلها، وتكوين وحدة موضوعية ومعنى متماسك. وبهذا تغيب الشخصية الرئيسة ويكون البطل الوحيد هو المكان -كومالا- وأن جميع الأحداث لا أهمية لها في ذاتها ولا تحتل دوراً إلا إذا كشفت جزءاً من حقيقة المكان أو أفراده بالتساوي. بل حتى شخصية بيدرو بارامو التي عُنونت الرواية بها والتي لم يكن لها ثقل في الرواية إلا بسبب أثرها على كومالا، لم تبدأ قصته إلا في المنتصف، ولم تُسرد إلا بعد أن توفي خوان ودفن في كفن واحد مع دوروتيا، وبدأت تروي قصة بيدرو له، بل أن حدث موت خوان جاء سريعاً وغير مؤثر طالما السرد مستمر ولا فرق بين الأحياء والأموات، لا سيما إن كانت الأحداث مستمرة في الالتفاف والصب في كومالا.

تكون ثيمة الفقر والحالة الاجتماعية وقوة وسيطرة الطبقة العليا، عادةً، حاضرة في الأدب اللاتيني كأداة تشريح للواقع السياسي الفاسد والانحلال الأخلاقي، وأن الدين ذات قابلية للاستغلال في خدمة هذه السياسة، ولكن رولفو جمع ذلك كله وأخذ به نحو خطوة إضافية، حيث قَلَب فكرة ارتباط الدين بالفقراء، واستغلاله لهم والاستحواذ على أموالهم وإبقائهم فقراء، وبدّل فكرة "الدين للفقراء" ليصبح الدين للأغنياء. وتمثل هذا المفهوم في الصراع الداخلي للأب رينتاريا وموقعه بين الفقراء أصحاب الخطايا البسيطة والذين لا يستطيعون دفع ثمن صكوك غفرانهم، وبين الأغنياء أصحاب الجرائم الكبرى الذين يملكون ثمن غفرانهم وخلاصهم. وبقبول الأب رينتاريا اعترافات الأغنياء، يكون قد انتصر للغنى والثروة كقيمة عليا، إذ لا يمكن للدين أن يستمر دون أموالهم، وعليه لم تكن أرواح هؤلاء المجرمون الموتى تهيم في زقاق كومالا كما الفقراء، بل كانت غائبة في الرواية لأنها في نعيم الجنة بأموالها.

يحدث أحياناً أن يكون الجانب الموضوعاتي معوّضاً للنقص في الجانب الفني، والعكس. ولكن عندما نقرأ "بيدرو بارامو" فإننا نرى أن الجانب الموضوعاتي والجانب الفني الجمالي مكملان لبعضهما البعض، حيث استطاع خوان رولفو من الحفر عميقاً في ثيمات متعددة كالدين والذاكرة والعنف والجنون والثأر، وبذات الخطاب الأدبي المغرِّب الذي أراده الشكلانيون، الخطاب الذي يستلب الكلام الاعتيادي، ولكنه في فعله هذا إنما يبلغ بنا -بصورة تنطوي على مفارقة- إلى تملك التجربة تملكاً أعمق وأشد امتلاءً وصميمية. إضافة إلى الجمع بين متانة الحبكة وعمق الشخوص بالرغم من كثرتها، وكأن الرواية تماثل الأعمال الملحمية الضخمة، ولكن في أقل من ٢٠٠ صفحة، وهذا ما يجعل هذه الرواية تقارب العلامة الكاملة.

عن جريدة الرياض

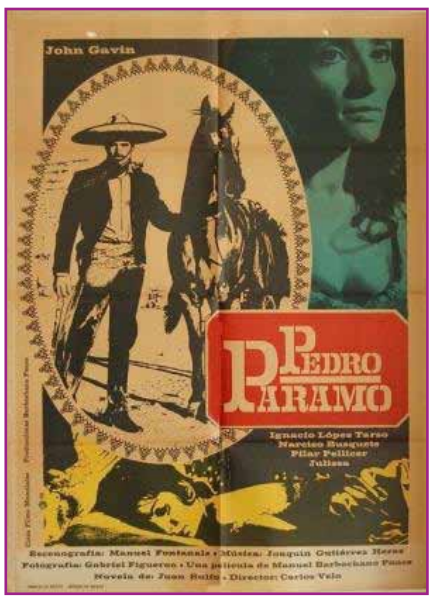

«دفاتر» خوان رولفو.. نجت من نزعته الجارفة لتدمير المسودات والمخطوطات

شوقي الريّس

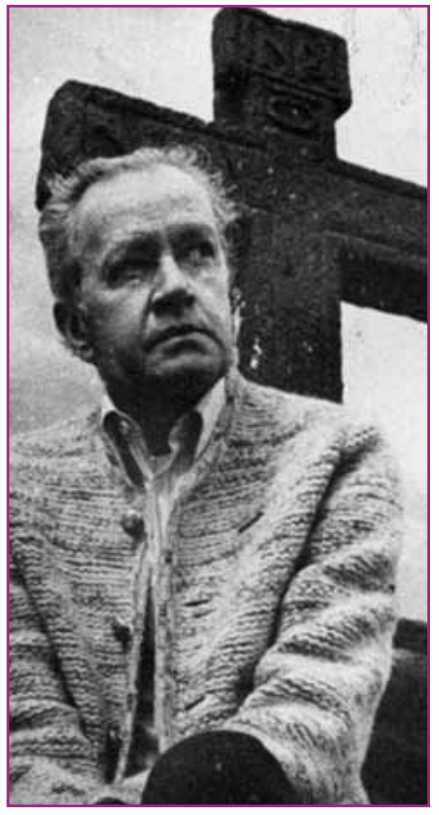

في عام 1955 صدرت للمكسيكي خوان رولفو روايته الثانية بعنوان «بيدرو بارامو» التي تدور حول الشواغل والهواجس الاجتماعية والنفسية لسكان الأرياف بعد الثورة المكسيكية. يومها كان رولفو، الذي توفي في عام 1986 مصاباً بسرطان الرئة، في الثامنة والثلاثين من عمره، ومنذ ذلك اليوم انقطع نهائياً عن الكتابة رغم أن روايته تلك لاقت نجاحاً منقطع النظير بين القراء والكتاب والنقاد الذين اعتبروها من عيون الأدب الأميركي اللاتيني والعالمي.

لكن تبين بعد وفاته أن رولفو لم يتوقف عن الكتابة بعد صدور روايته الشهيرة، كما لم يتوقف عن القراءة، التي كانت شغفه الأول الذي تشهد عليه مكتبته التي كانت تضم 15 ألف مجلد في التاريخ والهندسة والأدب والجغرافيا والأنثروبولوجيا، والتي قال عنها: «أكتب كالهواة وأقرأ كالمحترفين». مطالعاته تلك تركت لنا مجموعة كبيرة من الخواطر المدونة باليد في عدد من الدفاتر التي «نجت» من نزعته الجارفة إلى تدمير المسودات والمخطوطات، والتي تحتفظ بها العائلة جزءاً من الأرشيف الذي تشرف عليه المؤسسة التي تحمل اسمه، والتي كشف مؤخراً عن أنها تتفاوض على نشر بعضها مع وكالة «كارمن بلاسيلز»، الإسبانية التي كانت وراء نشر الأعمال الأولى لكبار الأدباء الأميركيين اللاتينيين، مثل غارسيا ماركيز، وفارغاس يوسا، وخوليو كورتازار.

في خواطر رولفو المدونة بخطه الرفيع المائل بحثٌ ومراجعة في الأدب البرازيلي، وآخر في الأدب المكسيكي، يرجح أنها تعود لأربع سنوات قبل وفاته، وأنها كانت آخر ما كتبه. ويقول مدير المؤسسة، فيكتور خيمينيز، إن الأبحاث التي أجراها الاختصاصيون الذين يراجعون أرشيف رولفو تبين أن هذه المخطوطات هي تكملة لنصوص سابقة، منها مقدمة رواية للكاتب البرازيلي خواكيم ماريا ماتشادو، ومحاضرة ألقاها رولفو في جامعة هارفارد عام 1981 حول الأدب المكسيكي. وستكون هذه الأعمال، التي ستصدر في الخريف المقبل، الأولى التي تُنشر له منذ عشرين عاماً بعد صدور «رسائل إلى كلارا» التي تضمنت المكاتبات الغرامية التي تبادلها رولفو في أربعينات القرن الماضي مع التي أصبحت زوجته فيما بعد.

منذ صدور روايته الشهيرة «بيدرو بارامو»، لم ينشر رولفو أي عمل روائي، باستثناء قصة صغيرة بعنوان «الديك الذهبي» في إحدى المجلات الأدبية، ومع مرور السنين تحول امتناعه عن النشر إلى أسطورة، في المكسيك وخارجها، ساهم هو في تغذيتها وإضفاء هالة من الألغاز والأسرار حولها. وعندما سئل مرة عن سبب توقفه عن النشر أجاب: «بعد وفاة العم سيليرينو لم يعد هناك من يقص عليّ أجمل الحكايات». لكن العم سيليرينو لم يكن هو صاحب المقاطع الشاعرية الساحرة التي وصف بها رولفو عالم الأرياف المكسيكية، ولا توقف هو عن الكتابة. وكما يتبين من الأبحاث الأخيرة في أرشيفه، انكب سنوات عدة في الستينات على كتابة رواية، أشار إليها في إحدى المقابلات وقال: إن أحداثها «تدور في زمن الاستعمار الإسباني وتسرد حياة عائلة تعيش معضلة النفس البشرية وتلجأ لكاهن عصبي المزاج لمعالجتها».

لم يلتحق رولفو بالجامعة سوى بضعة أشهر، لكنه عُرف بعصاميته عن طريق المطالعة الدؤوب واكتساب المعرفة بدقة وصرامة في حين كان يكسب رزقه بائعاً متجولاً ثم موظفاً حكومياً. ويتبدى تبحره بوضوح في مقالات البحث التي نشرها في الكثير من المجلات المتخصصة والمحاضرات التي ألقاها حول آداب الولايات المتحدة، ويوغوسلافيا، والمجر، والبلدان الإسكندنافية، وبخاصة حول الأدب البرازيلي. أما اطلاعه الواسع والعميق على الأدب المكسيكي، فقد جعل منه مرجعاً يخشاه الكتاب والنقاد على السواء.

كان رولفو يولي اهتماماً خاصاً بالشعوب الأرومية وبطقوسها ومعتقداتها، وبعلاقة الإنسان بالأرض والطبيعة. وكانت شخصيات رواياته نادرة الحركة، يكتفي بدفعها إلى التفكير والتذكر والإفصاح عن مخاوفها وغضبها وحقدها وندمها.

يروي غارسيا ماركيز في مذكراته ما يلي: «صعد صديقي ألفارو موتيس سلالم الطبقات السبع في المبنى الذي أسكن فيه حاملاً تحت إبطه حزمة من الكتب أخذ أصغرها وناولني إياه ثم قال ضاحكاً: اقرأ هذه الرواية وتعلم! كانت تلك رواية (بيدرو بارامو) التي لم تغمض عيناي تلك الليلة قبل الانتهاء من قراءتها الثانية. منذ قراءتي رائعة كافكا (المسخ) في بيت الطلاب الذي كنت أسكنه في بوغوتا لم أشعر بمثل الانفعال الذي شعرت به تلك الليلة».

ويقول الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس: «(بيدرو بارامو) من أفضل الروايات الأميركية اللاتينية، لا بل العالمية». أما الكاتبة والمفكرة الأميركية سوزان سونتاغ فقد كتبت في آخر بحث أدبي طويل نشرته قبيل وفاتها في فرنسا تقول: «... ليست رواية (بيدرو بارامو) من قمم الأدب العالمي فحسب، بل من أكثر الكتب تأثيراً في القرن العشرين».

عن الشرق الاوسط

بيدرو بارامو.. الكتابة بلا بوصلة

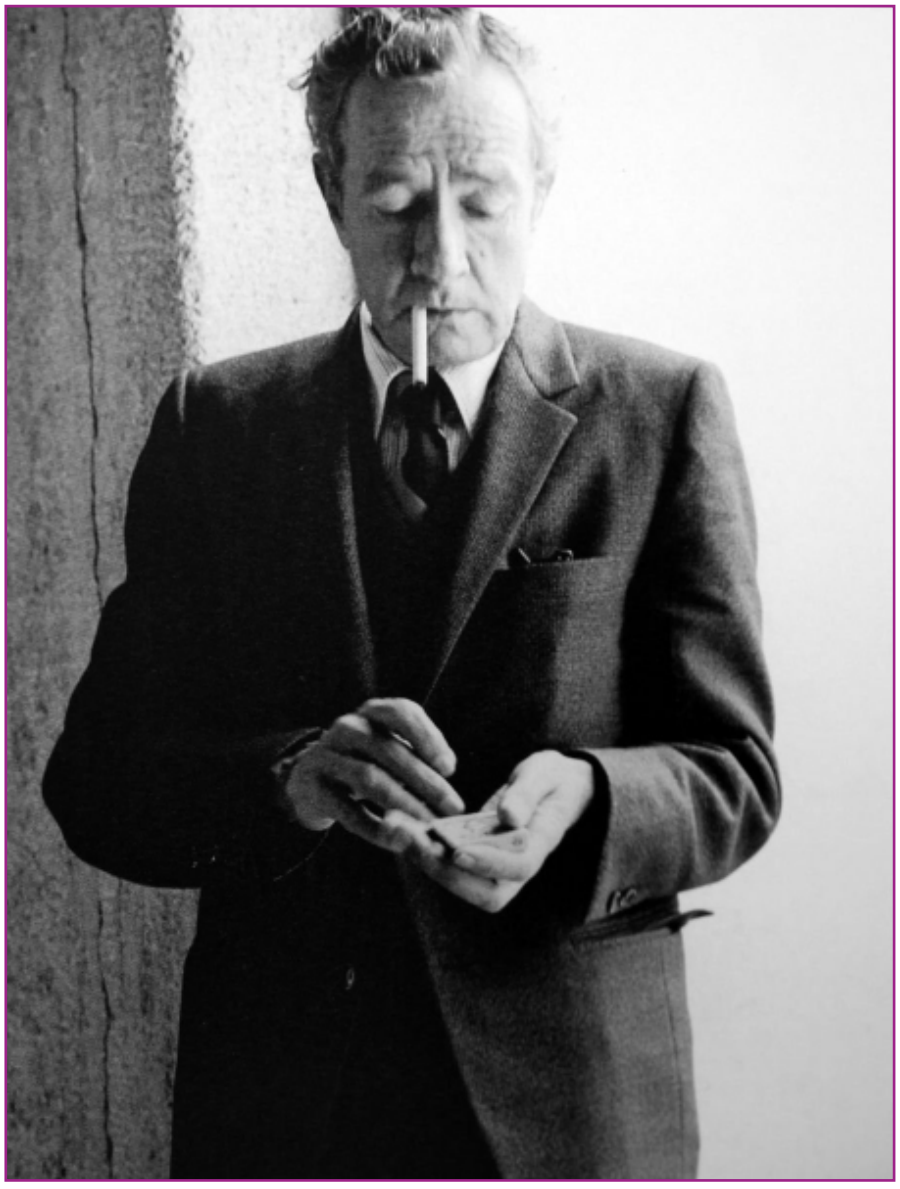

هاله ابوليل

على الأرجح قد تصادفك في أغلب واجهات المعارض أغلفة تحمل أرقاما لروايات حديثة ، فتتعجب فما الذي يعنيه الكاتب من إستخدام هذه الأرقام !!!

جميعنا يعرف لعنة الرقم 666 أليس كذلك !!! ولمن لا يعرف نشير لتلك السلسلة من الأفلام ،التي جعلت من الرقم الثلاثي 666 ، مقرونا بالتمرد الشيطاني ،حتى أن بعض النسوة – اللواتي لديهن قابلية عالية للإيحاء ، قد تتفقد رأس طفلها ، لئلا يكون موصوما بهذا الرقم الملعون لأنه رمز للشيطان.

ولكن هذا الأمر – تعدى تلك الخزعبلات والنبوءات القائمة

على عالم غرائبي من الميتافيزيقا اللا ورائية ،ليصل إلى نوع من المغامرة الأبداعية التجريبية في الأدب والفن.

أما كيف حدث ذلك !! فما عليك سوى قراءة رواية عوليس لتعرف كيف استغل "جويس" معرفته بـ مدينة "دبلن" وإستخدامه لقاموس توماس في ذكر حقائق كثيرة. مثل ذكر قائمة بأسماء المشتركين في سباق الدراجات في حديقة فونيكس كمثال على نفس درجة من التفاهة والحمق. فقد كان فن الملصقات في تلك الأيام ضربا من البداهة والحمق معا.

وأن كان هناك تبريرات لإستخدام فن الملصقات هذا – وإقحامه بكل تلك الفجاجة في المتن السردي الروائي ، كمظهر من مظاهر التجديد التي وصفت حينها – بإعتبارها إنتفاضة غير إعتيادية في عالم الأدب. وبشكل أكثر تفصيلا عما كونه قد قيل بوصفه جاء لإزالة الفجوة القائمة بين الأدب والواقع.

فهل من مكتسبات الواقع ،أن تظهر روايات تحمل أرقاما فقط !!!

لايمكنك بأي حال معرفة إختياره لذلك الرقم أو ذاك إلاّ بقراءة ذلك العمل و إكتشاف المغزى المختبأ في متاهة العمل الروائي ،وربما الجدير بالذكر ، أن نشير لرواية الأديب السوداني "امير تاج السر" المعنّونة برقم (366) – الفائزة مؤخرا بجائزة كتارا للروايات المنشورة ،لتكتشف أن المقصود بالرقم ، مجموع عدد الرسائل – التي كتبها البطل لمعشوقته الخرافية التي ظهرت لمرة واحدة وأختفت ،ولكنها بقيت في ذاكرة البطل طول مسيرة رحلته على مدار تلك الأيام منقوشة بالرسائل التي لا تصل لأحد

،،هذه واحدة من الروايات ولكن هناك روايات كثيرة تحمل أرقاما هي الأخرى ،مثل رواية الروائي المصري الشاب " أحمد مراد والتي جاءت بعنوان "1919»

وهناك رواية للأديب المصري أحمد خالد توفيق وغيرهم وهذا ليس بمستغرب ،فالتقليعة هذه قديمة جدا.

فقد صدرت رواية لجورج أورويل سنة 1949 ، بعنوان يتقدم زمنه لثلاث عقود ونيف – رواية الديستوبيا وأدب المدينة الفاسدة والتي جاءت بعنوان 1984)) والتي بات تقليدها في عصرنا الحالي حاضنة خصبة و حربا للسرقات الأدبية مثلما حصل في إتهام الروائي الجزائري "واسيني الأعرج" لإحدى مواطنيه ، باتهامه بسرقة عمله المعنّون ب 2084 ،علما أن كلا العملين لم يصدرا بعد !!!

فلما كل هذه التقاليع ! التي تعدت الأرقام لتتبنى الرموز والأحرف أو الصفات.

فقد بات في حكم المنتهي – منحنى تبني الرموز ،شيئا مقصودا لذاته عند تأليف العمل الأدبي و كنوع من إشكالية الحياة التي ما فتأت تبحث عن التجديد والتحديث كما يحلو للبعض تفسيره

أعرف أن هذا الكلام قديم جدا ولكن بعد أن صار الأنسان مهمشًا وعبارة عن رقم في قائمة الإحصاء الوطني فقد جاءت الرواية كمتنبأ لما سيحصل وما سوف يحدث في الأيام اللاحقة

إنها تستشرف معنى المستقبل الغامض وتحاول تمهيد طريق الوعورة للأيام القادمة ،حيث سيشق المسير نحو ما يسمى بوحدانية البؤرة الكونية التي من سماتها غياب التفاصيل الإنسانية وشيوع الضباب الكثيف على الحقائق.

لذا لم يعد عجيبا أن تقرأ رواية – كل ابطالها عبارة عن رموز.فالسيد (ص) قابل الفتاة الجميلة والرشيقة الليدي (س) في مقهى تزين لافتته بعنوان رقمي مسمى (666) يقدم مادة رخيصة مشبعة بنكهة الأوكسجين الفاسد مكتوب عليها H_2O_2 يستطيع بها السيد (ص) أن يدلل بها صديقته في تلك الأمسية.فهذا التشظي والإمحاء في التعريف وإعطاء الأسماء قيمتها هي تقنية روائية قديمة ،وجدت مريديها بكثرة ولا مجال لحصر الروايات التي همشت ابطالها بإعطائهم رمز أو رقم أو اسم من لا اسم له مثل رواية الروائي العراقي "احمد السعداوي" الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية – البوكر – النسخة العربية،حيث أطلق على البطل اسم "الشسمة" "اللي شو اسمه – كمسخ يظهر في سماء بغداد من أشلاء مخاطة من ضحايا التفجيرات.

ولم يستقم الحال بعد ، فتحولت عناصر القصّ إلى مجاهيل ورموز مجهولة ،وامتلأت الروايات بصفحات بيضاء تطلب ضمنيا من القارىء أن يملأها ، بإعتبار أن القارىء صار شريكا في الكتابة الروائية.فصار المكان في الرواية مجهول الهوية أما الزمان فغير معروف و ربما تكون الرواية بلا شخصيات أو أن البطل هو المتحدث الوحيد عن شخصيات لا تتكلم أو شخصيات ميتة يسمع صداها ،و لا تعرف مع من يتكلم ، وطبعا هذا لا يندرج تحت باب العبثية، بل العبثية المقصودة بحد ذاتها ، فالراوي في هذا العمل واعيا لما يقترف من عملية شطب لكل أركان الجسم الروائي وعناصره الثابتة التي يقوم عليها البناء السردي للعمل كما عهدناه و تعلمناه في الصف الرابع تحديدا ، فجاءت حركات التجديد بماجاءت بحجة محاربة القديم أو بحجة إظهار الجماليات الكامنة بالإختلاف أو بحجة من لا حجة له

فقط هكذا يحدث الأمر وكفى.

فالمؤلف كما أراه – يقف على أطلال تلك الهياكل القائمة ، منسجما بذلك القصف لأبراج ما يسمى أركان الرواية – التي كانت قائمة يوما ما ، فيوغل بها تدميرا.

إنه يريد حقا إن يستمتع بشظايا التدمير، إنه ينزع نحو ساديته في إحداث ما يسمى بخلخلة مجرة الكون الروائي ، ليصرح إنه ليس بذات الإنسان النمطي الذي تعرفونه بل يستطيع أن يغير من واقعه بما يسمى بالحداثة العبثية أو عبثية الحداثة ،،سيان هكذا كتابة عبثية ، غارقة في الشتات و المنفى والإغتراب والضياع قد تكون عنوان لعصر تفتت قلبه حزنا على عالم يخلو من العدالة والمساواة ، فلما تبقى الرواية على حد علمه – محافظة على نسيجها الذي لا يصنع سوى ثوبا واهيا لا يكفي للإستدلال على عصر لا معنى له.

ماذا تعني ان تقرأ رواية وتنساق في قرائتها وأنت لا تعرف في ارض هي ،ولا في أي زمان ، حتى إنك لا تدرك أين كنت وكيف وصلت لتلك الصفحة، وربما تستوقفك لفترة – مثابرتك لكيفية مواصلتك واستدارجك لتلك اللحظة.

نعم ،قد تأخذك إلى حيث لا تعلم وكأنك تعلم إنك لا تعلم إنك ضائع لا محالة ، ليس هذا فقط بل كونك مستمتع بضياعك.

حسنا ،،، هل استمتعت يوما بضياعك؟

كم مرة اختفيت تحت السرير انتظارا لمتعة الكشف عنك؟

حقا هذا ما يحصل عدّ الى طفولتك قليلا

هذا البريق الذي يظهر من عيني الصغار أثناء ايجادهم وهم مختبئين تحت الغطاء يعادل تلك المتعة ، وأنت غارق في رواية بلا زمن ولا مكان ولا حتى شخصية قائمة بحد ذاتها بل ربما تكون أشلاء لحيوان أو إنسان

فليس هناك شخصية محورية تستطيع أن تسألها / عذرا،، أين إنت !!!

فلا ترد عليك

فتصيح مجددا: ماذا بعد

ثم بصوت اعلى قليلا

عذرا ، ماذا يحدث هنا

فترد عليك – أخيرا ، بجلافة:

أن كان لا يعجبك ،،غادر.

هكذا بكل بساطة يتم طردك

ولكنك في أعماقك تعرف أن وراء تلك الشخصية النزقة، شخصية تستحق الحضور والإصغاء والتعاطف ، ربما ولكنك لا تغادر مستسلما كما تريد منك، لأنك تعرف مسبقا إنه صوتك المريض. الذي يبحث عن علاج خارج تلك الحدود المألوفة ،وبكونك مستمتعا بكل هذه الفوضى وربما كل هذا سيصادفك بشكل أكثر أو اقل تقريبا عند قراءة رواية "بيدرو بارامو" – رواية بلا اصوات ، من قال ذلك!!!

بل هي كلها اصوات ،

ربما بلا كائن موجود

،من قال ذلك !!!

بل يوجد صاحب الشخصية الوحيدة التي جعلت من العمل يقف على عمود واحد ،أما كيف لم ينهار

فذلك قطار لعصر صار يمشي بلا سكة

أما من أين تأتي الأصوات

فهذا ليس من شأنك

المؤلف يختفي بتاتا ولا وجود له ، فقط صوت أو أصوات للبطل والأموات ، وحديث هامس وصمت وثرثرة لا يسمعها أحد سواك.

هل فكرت يوما ان تفهم "خوان رولفو" "كيف يفكر" وكيف كتب هذه المخطوطة العبثية ! ايمكن أن يكون كاتبها واقعا تحت تأثير عشر فناجين من الفودكا أو كان واقعا في حالة من الوسن ما بين اليقظة و النوم.

أم أن الأمر – وان كان بلا بوصلة ، فهو مرتب ومنظم وعفوي وجميل.

ألم يقال أن الجمال يكمن بالعادي والمألوف والطبيعي !

ففي روايته الشهيرة والوحيدة هذه ، يضعنا "خوان رولفو" تحت كتابة روائية بلا بوصلة وكأنك تسبح في القمر بلا جاذبية ولا ثبات.

. تم تهميش كل شيء، الرواية تدور ضمن دوائر الإبهام والشخصية تتحدث مع أموات ، كل شيء قاتم وعبثي وسوداوي.

يقول "خوان رولفو" صاحب هذا العمل الوحيد و العبثي الجميل – صوت – الميّت المنعش وقيامة الأموات وأصوات الماضي الآتية بحشرجات السنين، إنه كتب روايته الوحيدة – المؤسسة لحداثة الرواية اللاتينية ، بدافع زيارته لقريته ومرتع طفولته ،بعد أن هجرها ثلاثين عاما، فعاد إليها ليجدها طللاً، تلف الوحدة شوارعها وديارها، ولا يعمّرها سوى حفيف شبحي، حفيف أشجار الكازورينا تعصف بها الريح.

ببساطة ،هكذا ولدت هذه الرواية تأسيسا لمسرح الصوت العبثي الوجودي مع قليل من الغموض بنكهة الذهاب إلى حياة أخرى مندثرة.

ببساطة أخرى ، كلمة غريب و وحيد ومتشظي و تائه.و ربما تكون عبارة التحذير في مذكرات" غابو "التي تم اعطائها لوالدته ،عندما قيل لها أن تبحث عن ولدها في المكتبة.

«إحذري.كلهم مجانين «

تكفي لإسدال الستارة عن كل ما يحدث

و لهذا يحدث الأمر الجميل ،كلّه.

عن الحوار المتمدن

خوان رولفو.. كذبة (بيدرو بارامو) التي صدّقها القرّاء

علي حسين

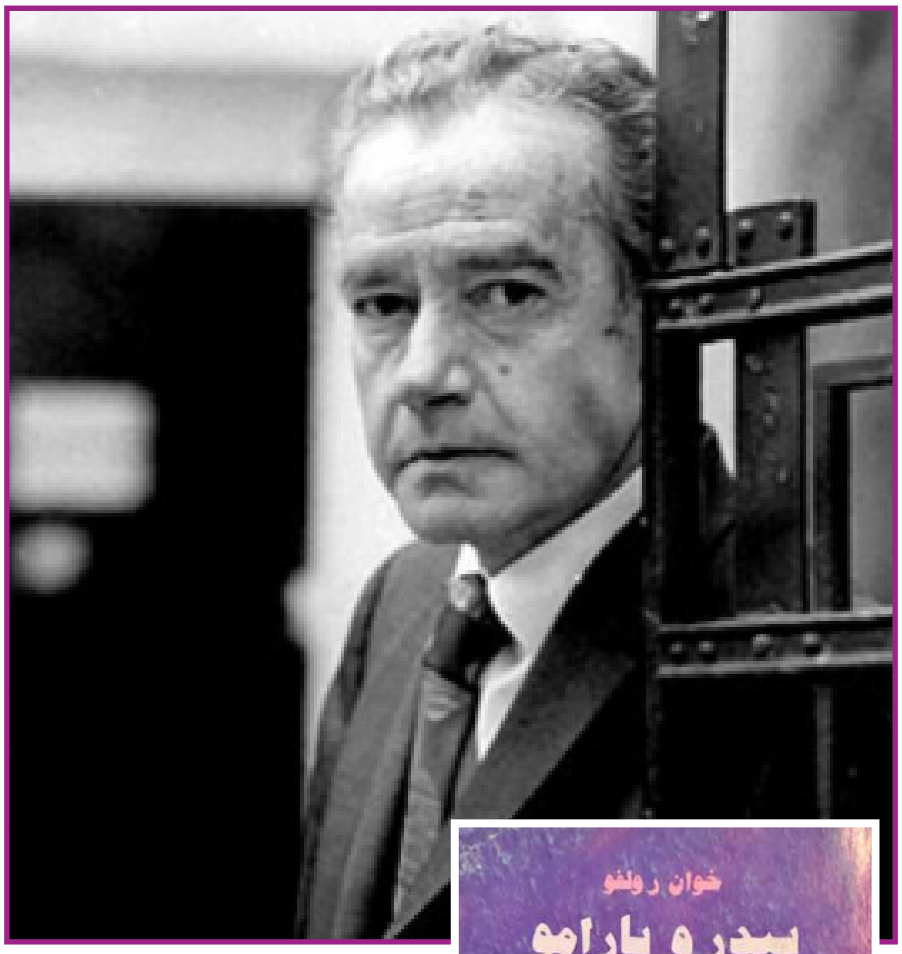

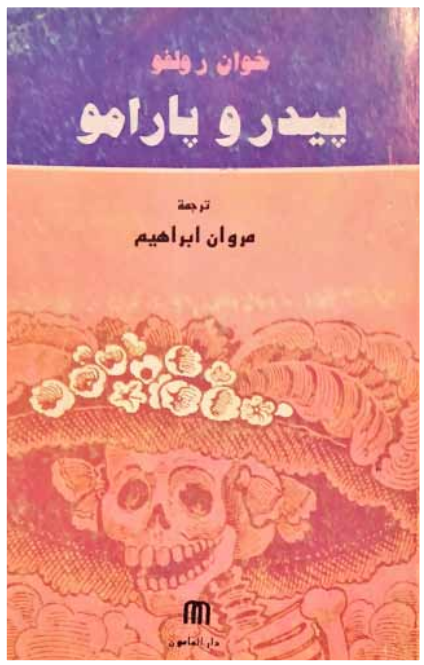

" في شهر مارس من عام 1954 اشتريت دفتراً مدرسياً ودوّنت الفصل الأول من رواية كانت قد تشكّلت صورتها في رأسي منذ سنتين، أجهل حتى الآن من أين خرجت كل تلك التهيّؤات التي ضمنتها (بيدرو بارامو). كما لو أن شخصاً ما كان يُمليها عليّ. بغتة في وسط الشارع، كانت تخطر لي فكرة فأدونها في وريقات خضر وزرق اللون»، كانت هذه العبارة قد قالها الروائي المكسيكي خوان رولفو وهو يشرح لأحد الصحفيين الطريقة التي كتب بها روايته الشهيرة والوحيدة (بيدرو بارامو) التي شكلت علامة فارقة في رواية أمريكا اللاتينية، وأصبحت أعجوبة أدبية يتحدث عنها الجميع من ماركيز الذي قال إن خوان رولفو استطاع بـ 150 صفحة أدبية فقط، أن يجلس إلى جانب سوفوكليس على عرش الأدب، إلى يوسا الذي وصفها بالصفعة، مروراً بفوينتس الذي كتب: «إن بيدرو بارامو هي الخيط الذي يقودنا إلى رواية أمريكا اللاتينية الجديدة». فيما أرسل بابلو نيرودا رسالة للكاتب يُبدي فيها إعجابه الشديد بها، ووصفها بورخس بأنها واحدة من أهم مئة عمل أدبي أنتجتها البشرية في تاريخها.

يتذكر ماركيز أنه وصل إلى المكسيك لأول مرة عام 1961، وهناك استجاب لطلب صديق أن يقرأ رواية بيدرو بارامو، ولم ينته منها حتى أعاد قراءتها مرة ثانية بنفس اليوم، بعد ذلك قال لصديقه الآن استطيع أن أعيد ترديد الرواية كاملة، من البداية أو من النهاية، ويضيف صاحب مئة عام من العزلة: إن «خوان رولفو أعطاني الطريقة التي سعيت بها لمواصلة كتبي».

عندما نشر خوان رولفو روايته (بيدرو بارامو) عام 1955، تلقى بعض الإشعارات الفاترة من الناشر، الطلب عليها قليل، ومبيعاتها لا تزال سيئة. المؤلف مجهول لم ينشر من قبل سوى مجموعة قصصية واحدة هي (السهل يحترق) قبل سنوات من رواية بيدرو بارامو.. لكنها بعد سنوات قليلة ستترجَم إلى 60 لغة وتباع منها أكثر من عشرة ملايين نسخة.

ولد خوان رولفو عام 1917 في سايولا، إحدى أفقر مناطق المكسيك، جافة وشبه خربة، نزح معظم سكانها فراراً من الثورات والحرائق والتصحّر، ومن بقي هناك يعيش في ظروف إنسانية غاية في السوء. وفي مقابلة صحفية معه يصف طفولته بأنها كانت صعبة للغاية، حيث كان سكان مدينته يعانون من قسوة الطبيعة وظلم الفقر وإهمال السلطات، ومع هذا فهم قابعون هناك، هامدون مثل ما يحيط بهم من أشياء، مذعنون لقدرهم في انتظار الموت، مثلما صوّر أحوالهم في مجموعته القصصية (السهل يحترق). عندما كان في السادسة من عمره، قتل والده على يد قطاع طرق، بعد عامين، توفيت والدته بعد معاناة مع قصور في القلب. تلقى تعليمه في دار للأيتام، تركت هذه السنوات في نفس الصبي ذكريات لا تُنسى: «ما تعلمته كان الاكتئاب، كانت فترة من الفترات التي عانيت فيها من وحدة قاسية وأصابتني بحالة من الاكتئاب لم أشفَ منها حتى يومنا هذا». ونجده في قصته (فقراء حد الضياع) يكتب: «من العسير أن تَنمو وأنت تدرك أن الشيء الذي يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات». عندما أنهى الدراسة الإعدادية انتقل إلى مكسيكو سيتي ليدرس القانون، وهناك سيعمل في الكثير من المهن، موظف في دائرة قانونية، باحث في معهد لدراسة أحوال السكان الأصليين، وكيل هجرة ثم كاتب سيناريوهات أفلام، في عام 1980، يتم انتخابه عضواً في الأكاديمية المكسيكية للأدب. توفي في مكسيكو سيتي في 6 يناير 1986، بعد إصابته بسرطان الرئة.

تبدأ رواية (بيدرو بارامو) مع خوان بريسيادو، وهو يروي رحلة قام بها إلى قرية كومالا مسقط رأس والدته، التي توفيت مؤخراً وطلبت منه العثور على والده، بيدرو بارامو، وبينما يقترب من القرية يتعرف على شخص اسمه (أبونديو)، يُخبره في ما بعد أنه ابن بيدرو أيضاً، وأن والدهما قد مات منذ وقت طويل. عندما يصل خوان بريسيادو إلى القرية يجدها مهجورة.

– ماذا قلت لي عن اسم هذه القرية التي تبدو هناك في الأسفل؟

– إنها كومالا يا سيدي

– أأنت متأكد من أنها كومالا؟

– متأكد يا سيدي.

– ولماذا تبدو كئيبة هكذا؟

– إنه الزمن يا سيدي.

وهنا يبحث عن امرأة تدعى دونا إدفيغز بناء على توصية أبونديو، ويجدها في منزل قديم. تخبره أن أصوات الموتى يمكن سماعها في كومالا، وتعترف أنها تعرف أنه قادم، حيث أرسلت والدته لها رسالة رغم موتها. بعد ذلك تخبر خوان عن طفولة أمه وتبلغه أن أبونديو قد مات منذ زمن طويل. ونكتشف أن رحلة البحث عن الأب لن تقود خوان في نهاية الأمر إلاّ إلى مدينة أشباح، وأن خوان الذي يطالعنا منذ بداية الرواية بالحديث عن سبب قيامه برحلة البحث، سوف يتوقف عن إخبارنا بما يحدث له في منتصفها لأنه سيموت خلال رحلته، سيموت لخوفه مما يكتشف في المدينة: «لقد باتت مدينة أشباح، وكل الكائنات التي سيلتقيها هناك ليست في حقيقتها سوى أشباح يلاحقونه بحكاياتهم وشكاواهم هم الذين كانت لكل منهم حكاية مع بيدرو بارامو». أما بقية الحكاية والتي تلي موت خوان المفاجئ فترويها لنا دوروتيا، متسولة القرية التي عندها كل حكايات القرية وما حدث فيها قبل موت بيدرو، ولسوف نعرف من خلال دوروتيا، أن بيدرو وقرية كومالا كانا شيئاً واحداً، وسنعرف أن بيدرو بارامو ينتمي إليه عدد كبير من سكان القرية برابطة البنوة. فهو أقام عدداً كبيراً من العلاقات مع نساء أنجبن له عدداً لا يحصى من أبناء، وسنتعرف خلال الرواية على ثلاثة منهم، فإلى جانب بيدرو، هناك السائق ميغيل، ولدينا أيضاً أبونديو مارتينيث الأصم قليل الكلام. وصحيح أن صفحات الرواية التي لا تتجاوز الـ 150 صفحة، تزدحم بعدد كبير من الشخصيات الثانوية إلى جانب تلك الرئيسية. ومع هذا، فإن الاسم الذي يعود إلينا في كل فقرة وأخرى هو اسم (بيدرو بارامو) الذي نتابع حكايته منذ طفولته حتى لحظة موته، وكيف استطاع أن يتحكم بالقرية وسكانها، فقد حوّلته خيباته في الحب وانهماكه في إقامة علاقات جنسية حتى مع نساء لا يبالي بأن يعرف أسماءهن تاركاً عند كل واحدة منهنّ ابناً لن يقيّض له أن يتعرف إليه أبداً. فهو بعد كل شيء منهمك في بناء هذه البلدة التي اتفق مع الثوار حين وصلوا إلى الحكم أن يكون هو راعيها وحاكمها، وبالتالي المتحكم بكل شيء، ما يجعله متحكماً في مصيرها. وهذا ما يفسّر بالطبع كون قرية كومالا قد ماتت بعد موته وتحولت إلى مقبرة كبيرة، هي تلك التي يكتشفها خوان في نهاية رحلة بحثه عن ذلك الأب الذي يبدو في نهاية الأمر وكأنه أحد شخصيات الإلياذة أو الأوديسة.

عام 2000 أجرت صحيفة (الباييس) الإسبانية استفتاء لتسمية أعظم رواية كُتبت في أمريكا اللاتينية. فكان الفائز هو خوان رولفو وروايته (بيدرو بارامو)، وكان أحد أبرز المصوّتين غابريل غارسيا ماركيز.

في العام 1974 أجاب رولفو حول سؤال لماذا لا يكتب رواية جديدة قائلاً: «لأنّ العم ثيلرينو قد مات، وهو من كان يلقنني القصص. كان يمشي معي وهو يتحدث، كان كذاباً كبيراً»، ثم يضيف: «بالنسبة لي، كثيراً ما انتقدني أبناء بلدي لأنني أحكي أكاذيب، ولا أكتب حكايات، أو أن كل ما أقوله أو أكتبه، يقولون، لم يحدث قط، وهذه حقيقة، فأول ما يعنيني هو الخيال، وداخل الثلاث نقاط التي ذكرتُها سلفاً يتقدم الخيال المتجول، الخيال اللانهائي، الخيال بلا حدود، وعلينا أن نكسر الحاجز الذي يغلق الدائرة، فثمة باب، لا بد أن هناك باباً للهروب، ومن خلال هذا الباب يجب أن نتسرب، يجب أن نهرب، هناك يظهر شيء آخر يسمى بالحدس، الحدس يؤدّي بي للتفكير في أن شيئاً لم يحدث، لكنه يحدث أثناء الكتابة».

في معظم المقابلات التي أجريت معه كان رولفو يقول: «لست كاتباً محترفاً، إنني مجرد هاو أكتب عندما تأتيني الهواية». وعندما يسأله أحد مواطنيه بعد أن استمع إلى واحدة من محاضراته: «كيف أصبحت كاتباً؟»، يجيب: «كنت أبحث عن الهدوء».. وقد عاش رولفو سنواته الـ 69 لا يهتم بالشهرة وإنما يبحث عن الهدوء، حتى أنه كان معروفاً بعدم الردّ على رسائل معجبيه ويجد حرجاً في المناسبات الاجتماعية، ودائماً ما يُشاهَد جالساً لوحده يقرأ في كتاب. عندما نشر روايته (بيدرو بارامو) مرّت سنوات دون أن ينشر قصة قصيرة أو رواية جديدة أخرى، وعندما سُئل ذات يوم عن جديده قال: «أكتب عندما تأتيني الهواية، فإذا لم تأتِ، لا أكتب».

يتذكر رولفو أنه عاش حياة صعبة يتيماً: «لم أحظ قطّ بأي أحد من الناس يتولى مهمة قصّ الحكايات عليّ، ذلك أن القوم في قريتنا، هم من طينة متكتمة ومنطوية على نفسها، أجل، حتى ليحسّ المرء الذي يعيش بين ظهرانيهم في هذه الديار، بأنه هو نفسه غريب».

عندما صدرت (بيدرو بارامو) قال رولفو إن أحداث روايته نُسجت من الخيال، لكن النقاد وجدوا أنها واقعية ويمكن أن نجد شخصية بطلها (خوان بريسيادو) يتمشى في أحد شوارع المكسيك أو يجلس في واحدة من المقاهي، إلا أن رولفو ما أن يسمع هذه الآراء حتى يبتسم، يقول لمراسل إحدى الصحف: «غالباً ما أخذ علي أبناء موطني، حكاية الكذب وعدم تسجيل وقائع التاريخ، وهذا لعمري أمر صحيح. إن ما يحتل مقام الصدارة عندي هو الخيال.. إنني أترك لتلك الشخصيات المتخيَّلة، حرية الاشتغال والتحرك من تلقاء نفسها هي بالذات، من دون أي تدخل أو اقتحام قد يصدران عني، لأني حين أقوم بعكس ذلك قد أتورّط في الهذر الذي هو من خصائص الكتابة المقاليّة».

• تُرجمت بيدرو بارامو إلى العربية ونُشرت بأربع ترجمات؛ الأولى في الثمانينيات بترجمة مروان إبراهيم عن دار المأمون، بعدها ترجمها صالح علماني، ثم شيرين عصمت، وأخيراً عبد الغني أبو العزم.

• ترجم السهل المحترق إلى العربية علي عبد الرؤوف البمبي، وصدرت في القاهرة عن المجلس الأعلى للثقافة عام 2002 ضمن إصدارات (المشروع القومي للترجمة). وصدرت ترجمة حديثة عن دار اثر قام بها المترجم بسام البزاز.

في صمت خوان رولفو

نجك والي

لسنوات طوال صمت خوان رولفو، وكان يُظن أنه لم يكتب عملاً آخر بعد روايته الشهيرة "بيدرو بارامو"، على الأقل كان هذا هو الرأي السائد حتى تعرفنا على عنوانين جديدين يُضافان إلى إنجازاته الإبداعية. يعود الفضل في ذلك إلى أرملته وكاتبة سيرته، كلارا أباريسيو. الكتابان سبق وأن صدرا في إسبانيا. الأول يحمل عنوان "هواء التلال" ويحوي مجموعة كبيرة من رسائل كتبها الروائي المكسيكي الأسطورة عندما كان واقعاً في الحب. أما الكتاب الثاني فيحمل عنوان "دفاتر خوان رولفو" ويضم مدونات ورسوماً تخطيطية لم ينته منها الكاتب (180 صفحة). كما نقرأ في الكتاب قصصاً قصيرة ارتأى الكاتب عدم نشرها، بالإضافة إلى رسم تفصيلي لروايتيه، "بيدرو بارامو" و"لا كوديرا". وإذا صعب على زوجة صاحب بيدرو بارامو نشر القصص القصيرة هذه التي لم يشأ زوجها دفعها للمطبعة، كما صرحت، فإن نشر الرسائل التي كتبها زوجها العاشق هو أكثر صعوبة، وهذا ما جعلها تكتب في تقديمها: "كما يبدو، إن ما أقوم به هو أمر مرعب". ذلك لأنها تعتقد أن رولفو لن يوافق على نشر الرسائل، لأنه في حياته لم يفكر في ذلك أبداً؛ وكل تلك الملاحظات التي دونها في دفاتره أراد لها أن تبقى هناك في مكانها، لا يعرف بها أحد. لكنها تعود طريقة عمل رولفو، إذ نعرف أن العملية الإبداعية كانت شغله الشاغل، منغمساً فيها، وتصاحبه دائماً، "فجأة، في وسط الشارع، خطرت في بالي فكرة دونتها على أوراق خضر وزرق. وعندما وصلت إلى البيت بعد العمل نقلت الملاحظات على الدفتر».

كان خوان رولفو ظاهرة غريبة في أدب أميركا اللاتينية، رغم أنه نشر كتابين وحسب. فمن المعروف، أن بين تاريخ وفاته في 7 كانون الثاني 1986 وبين نشر روايته، "بيدرو بارامو"، مرت سنوات طوال، (31 سنة). وطوال العقود الثلاثة تلك لم يدفع خوان رولفو أي كتاب للمطبعة، ولو رواية قصيرة؛ بل لم ينشر أية قصة قصيرة. ما الذي حصل له في تلك الفترة، وماذا كان يفعل؟ هذا ما سنأتي عليه في عمود الأسبوع القادم.

عندما سأل الصحفيون" الروائي المكسيكي خوان رولفو، أثناء زيارته لإسبانيا في العام 1983، لتسلم جائزة "أمير استورياس"، لماذا لم يكتب اي عمل لاحق؟ أجاب صاحب "بيدرو بارامو"، بأنه يحتاج الوقت لذلك، وهو لا يملك هذا الوقت، لأن عمله الوظيفي الذي عليه القيام به في "المعهد الوطني للسكان الأصليين" يأخذ من وقته الكثير، أكثر من عشر ساعات يومياً. في مناسبات أخرى كان خوان رولفو يرجع ذلك إلى "الحاجة الاقتصادية"، حيث، في المكسيك (كما هي الحال في بلدان شبيهة بها، في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية)، "من المستحيل أن يستطيع المرء العيش من الكتابة فقط". ولأنه كان يعرف بأن أعذاره تلك لم تكن مقنعة بما فيه الكفاية، كان يغامر أحياناً بالبوح ببعض الأسرار الصغيرة، ببثها هنا وهناك. يقول مثلاً: "الكتابة تسبب لي الرعب الدائم. مجرد تخيل الورق الأبيض هو قضية مرعبة...." أو كان يحاول أن ينفي بأنه لا يكتب: "أنا مشغول بالعمل على قصص قصيرة أخرى إضافية، لا رواية، إنما قصص انتهيت من كتابتها».

في الحقيقة كان خوان رولفو يشتغل منذ سنوات الستينات على رواية حملت عنوان لاكوديرا "السلسلة الجبلية". ففي نيسان عام 1963 نشرت الصحيفة المكسيكية المعروفة "أكسيلسيور" مقابلة أجرتها معه تحت عنوان "السلسة الجبلية كتاب جديد لخوان رولفو". لكن للغرابة باستثناء تلك المقابلة، لم يُعرف بعدها أي شيء عن تلك الرواية/المشروع، باستثناء عنوانها. وبهذا الخصوص يروي الكاتب الإكوادوري "بينيامين كاريون" في مقال له نشره في صحيفة البايس الإسبانية بمناسبة صدور الكتابين الجديدين، بأنه كان في المكسيك في العام 1977، وكان في تلك الأيام قد أصيب بجروح في ساقيه، الأمر الذي جعله يتنقل بالكرسي المتحرك. وكان غالبا ما يزوره خوان رولفو، ويقوده للمتنزه العام، حيث يجلسان بعض الوقت، ويصمتان. كان ذلك هو طقسهما المعتاد. وذات مرة، قطع خوان رررولفو فجأة صمته، ليعترف له، بأنه انتهى قبل مدة طويلة من كتابة "السلسلة الجبلية"، لكنه ممتعض جداً منها، ولا يعتقد بأنه سيقبل على نشرها، لأن "فيها الكثير من الدم". الدفاتر التي تركها خوان رولفو بعد وفاته تؤيد ما فكر به في حينه، إذ تتحدث الرواية، كما كتب عنها في الدفاتر، عن تمرد تلاميذ المسيح (التمرد وقع في المكسيك بين 1925-1928)، خوان رولفو بالذات كان من أنصار هذه الطائفة وأبوه كان أحد جماعة "تلاميذ المسيح" الذين وقفوا ضد سياسة الديكتاتور المكسيكي "بلوتاركو ألياس كاييس" عندما صادر ممتلكات الكنيسة وحرّم على القساوسة ممارسة السياسة. والد خوان رولفو مات في هذا النزاع (إحدى الروايات الكبيرة والخالدة في تاريخ الأدب العالمي هي رواية الكاتب الانكليزي غراهام غرين "القوة والمجد" الصادرة عام 1940 تدور في المكسيك وموضوعها الرئيس هو هذا الصراع، ولا أظن أنها مترجمة إلى اللغة العربية!).

هناك أيضاً قصة قصيرة كتبها خوان رولفو تؤكد فكرة "الدموية" التي تحدث عنها والتي حملت عنوان: "الليلة التي تركوه فيها وحيداً". فبطل القصة شاب متحمس يتوجه للجبال بصحبة اثنين من أعمامه. لكن العمّين يُباغتان من قبل الاتحاديين (الجيش الحكومي الرسمي) ويُشنقان، باستثناء الشاب، الذي ينقذ نفسه، لأنه ظل نائماً. من الجائز جداً أن يكون الشاب، ببساطة هو خوان رولفو ذاته، والرُهاب الذي تعرض له والذي تركت ظلاله الحرب الأهلية المكسيكية العبثية، التي قاتل فيها الأخ أخاه، عليه، ربما يوضح مقاومة خوان رولفو لتكملة كتابة رواية، كانت تحتم عليه تضمين كل تلك المسارات التراجيدية للمكسيك "الثائرة"، والتي حوت على "الدم الكثير"، الذي ذكره في حضرة الكاتب الإكوادوري، زميله.

التراجيديا "الدموية" هي الهاجس الذي يسيطر على إبداع الروائي المكسيكي الأسطورة صاحب "بيدور بارامو"، خوان رولفو على الدوام؛ التراجيديا حاضرة في القصص القصيرة العشرين التي ضمتها مجموعته القصصية "السهل يحترق"، وفي روايته اليتيمة "بيدرو بارامو". كما لو كان خوان رولفو يريد تثبيت براءة اختراع خاصة بأسلوبه القصصي والروائي، وربما ذلك ما جعله يكتب في دفاتره عن روايته/المشروع التي لم تر النور "السلسلة الجبلية" بأنها "حوار أموات": "الحكاية تبدأ بأن يروي ميت لميت آخر... القرية ميتة أيضاً". ولكن حتى رباطة الجأش، التي تقترب من عدم الشعور بالألم للقاص خوان رولفو، لا تستطيع تهدئة الصدمة المرعبة للنتائج "الدموية" لقصصه القصيرة. من المفارقة أيضاً، عندما نعرف أن ازدراء الكاتب للقصص يؤيد هذه الفكرة. ويكفي المرور على قصص خوان رولفو لكي يرى القارئ إصرار الأب الروحي للواقعية السحرية في الأدب الروائي لأميركا اللاتينية، أعني إصراره بالكتابة عن "شخصيات وجودها وحده يجسد دراما لا تنتهي من اليأس"، كما علق أحد النقاد الإسبان في ملف خاص عن خوان رولفو في صحيفة البايس، وهو يلامس بحق النقطة الحساسة في أدب خوان رولفو، وميزته، اختلافه عن معاصريه من كتاب المكسيك وكتّاب أميركا اللاتينية، قارة "مائة من العزلة" عموماً، ففي قصة "ماكاريو" هناك قلق يسحق بطل القصة بسبب وجود الصراصير، حتى ينتهي به الأمر إلى شنق نفسه، أما في قصة "تالبا"، فيملأ ضمير الراوي الندم بسبب جريمة قتل كان قد ارتكبها ضد "تنتانيلو"، بينما في قصة "تذكر" نجد أن أوربانو لديه علاقات جنسية مع ابنة عمه ويقتل حماه "ناجيتو" بسببها؛ وفي قصة "عقاب العرابات"، نعثر على جزء من اعتراف كان قد سمعه خوان رولفو من أحد القساوسة، قال له بفخر: "كل أولادي قتلة"؛ أما في قصة "في الفجر"، فينام جون خوستو بامبيلا مع ابنة أخيه. وفي بيدرو باراما (لنلاحظ اللعب بالأسماء هنا)، تبصق سوزانة سانخوان على الخوري الذي يزوجها من أخيها. ليست الشخصيات القصصية فقط هي التي تعيش هذه التراجيديا "القاتلة"، إنما تعيشها الطبيعة أيضا: ففي قصة "أعطونا الأرض"، نتعرف على قرية صغيرة نائية أسمها "لوفينا"، "ذلك المكان الذي تسمع فيه الريح... وليس غير الريح فقط"، أما القرية الأخرى، القرية الأصغر حقيقة، والتي أسمها "كومالا" فهي مجرد "قرية تسكنها الأشباح... ليس غير الأشباح فقط.

والأكثر رعباً في كل هذا هو أن كل هذه التراجيدية "الدموية"، أعني بكل تفاصيلها التي نقرأها في القصص أو في أدب خوان رولفو عموماً، أو حتى تلك التي لم نقرأها مباشرة في النصوص، لكننا نشعر بها مبثوثة بين السطور، تحلق في الجو العام للقصص، كلها تبرز بشكل ملفت للنظر في جميع ملاحظاته الشخصية التي نقرأها في "دفاتر خوان رولفو"، سواء تلك التي لها علاقة بالبيئة العامة أو بتلك التي لها علاقة بشخصيات قصصه. فهو عندما يعود ويستذكر قرى منطقته التي ترعرع فيها، يعترف بأن "في تلك المناطق جرت أكثر الأحداث إثارة للرعب"، لنقرأ: "ترعرعت في سان غابريل وهناك حدثني الناس قصصاً عديدة، فيها الكثير من السيوف والحروب والجرائم».

يمكن القول في النهاية، أنه بالإضافة إلى القيمة الجمالية الكبيرة التي اضافها الروائي المكسيكي الأسطورة خوان رولفو للأدب العالمي في كتابيه المشهورين "السهل يحترق"، و"بيدرو بارامو"، إلا انهما من الناحية الأخرى، كانا تمرينين كافيين بالنسبة له، جرب عن طريقهما قدرته على استدعاء الرعب والألم، ولم يشأ تكرار ذلك مرة أخرى في أي عمل جديد!.

سبق أن نشر في جريدة المدى

وتقول بأن الأمر مبرر، خاصة وأنها اتخذت قرارها بعد تفكير طويل: "فكرت بالأمر ملياً. فكلما تصفحت إحدى أوراق الدفاتر، كان هناك شيء ما يحدث في داخلي؛ لأن كل كلمة، وكل جملة، مشحونة بالحيوية والمشاعر، تجعلني أفكر بضرورة أن يشاركني الآخرون في هذه المشاعر التي تسببها قراءة هذه القصص الغنية بروحه، القصص التي تحوي بالتأكيد على مفاتيح جديدة لقراءة عمليه "بيدرو باراما" و"السهل يحترق».

ومن يقرأ الدفاتر لابد وأن يوافق أرملة الروائي ومنفذة وصيته على رأيها. لكن السؤال الذي سيطرح نفسه بالتأكيد، هو: لماذا رفض الاب الروحي للواقعية السحرية الأميركية اللاتينية، خوان رولفو ذاته نشرها؟ بعض النقاد الإسبان يحاولون الإجابة على هذا السؤال، جميعهم يتفقون على أن الصفحات هذه "كلها تحافظ على أعلى المواصفات التي ميزت العملين الوحيدين المنشورين من قبل الكاتب أثناء حياته"، وهي تحوي على اللبّ الدرامي لهذه الملاحظات، ولأنها بالمحصلة تعالج الموضوع ذاته التي تدور عليه أعمال المؤلف: الموت، "الموت هو ربما الموضوع الأكثر ثباتاً الذي تتقاسمه هذه المقاطع المزدرية والمستبعدة من قبله". الموت موجود في قصة "كليوتيلدة"، حيث يقتل الزوج زوجته لأنه لم يستطع تحمل عدم إخلاصها له؛ الموت ايضاً في الحكاية التي تتضمنها قصة عنوانها "أبي"، والتي هي تنويعة لرواية "بيدرو بارامو". وتبدأ القصة بالمقطع التالي: "مات أبي في فجر مظلم، دون أية فخامة، في العتمة. كفنوه كما لو كان لا أحد ودفنوه تحت الأرض كما يفعل المرء مع جميع البشر". تبين "الدفاتر" ايضاً

الزمن تجربة وجودية
خوان رولفو و بيدرو بارامو

لطفية الدليمي

يحتل الزمن الماضي بكل أوهامه وأوجاعه معظم مساحات الوعي الفردي والجمعي في المجتمعات المتخلفة التي لاتدرك الزمن كتجربة وجودية، ويتمثل التشبث المرضي بالماضي في فقدان القدرة على عيش لحظة الحاضر والعمى عن تصور المستقبل، فتلبث تلك المجتمعات رازحة تحت وطأة حمولات الماضي الأسطورية والخرافية، فلا تجيد التمتع بنعمة العيش وخوض التجارب المستجدة.

صحيح إن الماضي كمستوى زمني يحدد سمات الحاضر مثلما يحدد بعض رؤى المستقبل، غير إن الحاضر المعاش وحده هو الذي يبرهن على تجربتنا الوجودية ويعيننا على استشراف المستقبل كما يمكننا من إدراك الماضي، بمعنى آخر يمكن للمرء أن يعيش مستويات الزمن الثلاثة في لحظته الراهنة كبُرهة مكثفة واحدة لايمكن تقسيمها بنسق تتابعي، فنحن عندما نحظى ببعض سعادة في لحظتنا القائمة فإننا نتخفف بفعل ومضة السعادة تلك من عبء أوجاعنا الماضية ونأمل خيراً بما هو آتٍ من قادم الأيام.

تختلف المجتمعات المتقدمةعن المجتمعات المتخلفة في تعاملها مع معضلة الزمن، فهي إذ تعمل لتأسيس مستقبلها لا تهدر حاضرها المتدفق الذي لايمكن استعادته بل تحيا وتعمل وتنتج في مدياته وتنتفع من خبرات الماضي ولا تقدسه وتتعبد أمامه، فكأنها تمتلك الزمن بمستوياته الثلاثة ولاتدع ماضياً غابراً يهيمن على راهن عيشها.

من قرأ رواية "بيدرو بارامو" الفريدة لكاتبها الروائي المكسيكي "خوان رولفو" سيكتشف أن هذا الكاتب العظيم يتنقّل في روايته من زمن إلى آخر باستخدام رواة عديدين يبرزون بغتة في النص بلا تمهيد أو إشارة مسبقة للتحول، مما يضع القارئ إزاء متاهات متشعبة وعليه أن يتوقف برهة ليسترد أنفاسه ويواصل التوغل في غابة النص وسط تشابك الأمكنة ومستويات الزمن الملتبسة، وأذكر أن ترجمة ممتازة للرواية صدرت في بغداد عن دار المأمون في التسعينيات، عمد فيها المترجم مروان إبراهيم إلى إضافة ملحق يلي المقدمة يتضمن مخططاً وجداول بشروحات وافية لتبيان مستويات الأزمنة والأمكنة في مقاطع الرواية وزمنها الدوّامي.

تعد رواية "بيدرو بارامو" العمل الملهم الذي بشر بالواقعية السحرية في أميركا اللاتينية وتأثر بها كتاب لاتينيون كُثر في مقدمتهم ماركيز.

تعامل خوان رولفو مع مفهوم الزمن بطريقة غير مسبوقة عندما مزج بين مستوياته المتعددة فكانَ الماضي يتقدم المستقبل بينما يكمن الحاضر مترقباً بينهما، فيغرق القارئ في دوامة تدور وتعلو وتهبط نفسه على نحو ملغز لتبرز لنا أمكنة مختلفة في زمن مختلف، وتتصاعد وقائع الرواية المشتبكة داخل حلبة سباق متاهيّة تتنافس فيها الأصوات والتخيلات على الظهور كما تتنافس الأزمنة والموتى والأحياء..

وظفت عبقرية خوان رولفو الإبداعية الموروث الأسطوري في التعامل مع زمن بلا محددات فقد سبقت الأسطورة الدراسات النفسية التي تناولت سيكولوجية الجماهير المقهورة وقدمت نظريتها حول أفراد المجتمعات المتخلفة التي تعاني من اضطراب الإحساس بالزمن ومايسمى "اضطراب الديمومة" مما ينتج الفصام الفكري والانفصال التام عن الحاضر والمستقبل والتلبث في ماض غابر تجتر الشعوب المتخلفة وقائعه وتتعكز على تلّفيقات التاريخ حيث تجد فيها مهرباً من تحمل مسؤولية الحاضر والتأسيس للغد.

استخدم خوان رولفو في روايته معضلة الزمن الوجودي غير الممتد وجعل بطله الباحث عن والده المجهول يتيه بين غبار وأصوات ورؤى وينغمس في دوامة مدوّخة من الوقائع الحلمية فلا يبلغ حاضرا ولايمسك بمستقبل، يصاحب الموتى والكائنات الغبارية في عالم سفلي يشكّله وعيه المشوش من أدخنة ووجوه مطموسة وأصوات هامسة لشخصيات فانية يقض موتها الوهم الذي كانت تلاحقه في بحثها عما فقدت في حياتها.

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

خوان رولفو.. مسيرة لامعة وتقليدي سلس

ترجمة: لقاء محمد بشير حسن

ولد رولفو في سايولا في المكسيك سنة 1917 وتوفي في مدينة مكسيكو عام 1986. هو كاتب وفوتوغرافي مكسيكي، ينتمي إلى جيل الخمسينيات. تلمس سمعته في كتابين "السهل يحترق" مكون من سبع عشرة قصةٍ منشورة عام 1953 ورواية "بيدرو باراموا" منشورة عام 1955.

كان أحد كتاب أمريكا اللاتينية الكبار في القرن العشرين. مزج في أعماله الواقع و الخيال تتطور أحداث رواياته في مشاهد إقطاعية ما بعد الثورة المكسيكية. شخصيات رولفو تقدم نموذجاً للمكان بمشاكله الكبيرة الاجتماعية- الثقافية الموتورة بعالم خيالي.حظي رولفو بإحترام النقد من خلال شخصياته غير القابلة للنقاش، وبعد سنتين تحول هذا الاحترام إلى آخر وهو أعجاب الجمهور به من خلال عمله "بيدرو باراموا».

إصرار شديد

ثمة إصرار شديد مع نفسه منعه من دفع روايات أخرى للمطبعة على ما يبدو انها أنجزت منذ وقت طويل منها: «سلسلة الجبال، الأيام بدون زهور، وفيٍ هذه الأرض لم يمت أحد»- متجنباً الإشارة إلى أنه كاتب محترف وبالكاد يعلن أنه كاتب «هاو». تكونت شخصية رولفو الاستثنائية عندما حصن نفسه من مغريات المتاجرة بأعماله بالتزامه بالحرية المطلقة في إصداراته. سواءً تعلق الأمر بعمل خارج نطاق الأدب أم لا فمن المؤكد أننا لا يمكننا تجاهل أعماله المطبوعة. وهكذا يمكننا القول وفقاً لكلمات برناردو دي بالبوينا (1)في عمله «الفخامة المكسيكية،» « أن كل شيء قد أوجز في هذا الحوار».

بالفعل أن كلا العملين «السهل يحترق» و «بيدرو باراموا» تضمنا بشكل مطلق رؤية خوان رولفو للعالم، ونقلا هذه الرؤيةً بلغة خاصة وحاسمة. ومن المؤكد أن لدى الكاتب شعوراً بالرعب لا يمكن التخلي عنه من أن يكون شخصاً مكرراً للكلام مع نفسه وهو أمر قد أنكره الكثيرون. في كل الأحوال، بعد انتهاء دوره الأساس أثرى هذين العملين أكثر إذا ما وسع محتواها في النص إيعازات الشعر الصامت.

وضح رولفو في أعماله حقيقة ثابتة، مثل المنطقة التي ولد فيها، حيث الهجر والثورات خلقا حالة من الإهمال والعوز، لناس قليلي الاتصال، شديدي التركيز، شغوفين بعبادةً الأموات. أن أولئك الناس وهذه الأجواء هي التي تظهر في قصصه ورواياته. وبذلك فإن العنف الذي ينتشر في صفحات هذه الرواية وقصص أخرى يعد انعكاساً أدبياً لحرب (الكرستيروس) في نهاية سنوات العشرينيات، نتيجة ردة الفعل الشعبي ضد نفوذ رجال الدين في عهد الرئيس بلوتاركو الياس كايس. وفي ما يخص الوحدة التي هي واعظ أساس لإبداعات رولفو، يمكننا القول أنها ليست شيئاً متعلماً من الآخرين وإنما نابع من ذاته. ولابد من ذكر أن توقه للريف أصبح أكثر شدة في سنوات العمل الشاق في معهد دراسة أهالي أمريكا من المكسيك.

يقول لويس آرس كانت المسيرة اللامعة والمختصرة لخوان رولفو إحدى عجائب أدبنا. لم يكن مجدداً بالمعنى الدقيق، وإنما على العكس من ذلك، يعد الأكثر سلاسة من بين التقليديين. وهنا تكمن قوته". بالتأكيد لم يكن رولفو بحاجة للانفراد من اجل الهروب من تيار الإصلاح الإقليمي، المعروف في كل شعوب أمريكا الناطقة بالاسبانية، ومن مواضيع قصص الثورة المكسيكية، وانطلاقاً من ذلك النسق كمنت أصالته في إعادة تنظيم معلومات الواقع من دون رفضها لكن عدم تحويلها إلى غاية بحد ذاتها. وقد حلت المعارضة القديمة بين الوطنية والعالمية لرولفو بقدرته الغريبة للحصول على متعة المتلقي وعدم إيقائه مسجوناً في شبكة اللامألوف، ومتنوعاً تقريباً لأبعد من تلك الحدود، في مواضيع إنسانية أساسية.

أصر الكاتب في رواياته المتعددة على تفضيل مصلحة الدولة على غيرها من المصالح. لذلك نستطيع أن نؤكد أن هذه هي صفة عامة لكل أعماله وشيء يميزها بجلاء عن كلاسيكيات الثورة المكسيكية، المحملة بالحركة والتنوع. أن المجالات التي يدخلنا فيها رولفو مغلقة وخانقة، تتعلق بالطبيعة أو الأشياء الداخلية، يلفها مظهر كابوسي. تستطيع الكائنات البشرية التصرف بعنف- وليس من الغريب أن تقوم بذلك- لكن لا احد يهرب إلى ذلك الفضاء الخانق، والكثيف الذي يشل كل شيء بشكل حتمي للضحايا أو الظالمين مثل تلك الشخصيات الأخرى الساكنة بذاتها والمجبورة على أن تنفذ مهمة المبلغ، داخل سجنه المشترك: الذي يمثل أراضي جاليسكو أو هو (العالم) ذاته.قصص "السهل يحترق" صورت في حالات عدة عمل "بيدرو باراموا"، لأنها تقدم شيئاً مشابهاً يتمثل بـ (الإنسان كصورة مصغرة عن العالم) يقوده الخراب. يعتقد أحدنا في بعض الأحيان، وفي منتصف الطريق الذي هو بدون ضفاف – كما يوضح الراوي في (أعطتنا الأرض)- عدم وجود شيء في ما بعد؛ وغير ممكن إيجاد شيء في الضفة الأخرى، في نهاية السهول التي تشقها الحفر والجداول الجافة».

مكان حزين

والمبلغ المجهول لمنطقة «لوبينا» يوضح: «من أي مكان تنظر إليها، لوبينا هي مكان حزين جداً. الهواء الذي يهب هناك، يقلبها، لكن لا يهدمها أبدا». يعيش الناس منسجمين مع هذه الأجواء لأسباب دنيوية غامضة، ترتبط بعبادة الأموات، وليس للتأمل بمستقبل جيد- تقريباً، إذ يمكننا القول أنه لا مستقبل لهم، باستثناء حينما يكون هناك نظرة لزمن جيد، كما في قصة «السهل يحترق»، إذ من المستحيل تجنب الشعور بأن القدر لن يسمح بأن ينصلح كل شيء بسهولة جداً. تقع رواية بيدرو بارامو في القطاع الواسع من أدب الحوارات الأخروية، المشحونة بالأحاسيس ابتداءً من الحوارات للكاتب لوثيانو ساموسات في عمله «مدينتنا» للكاتب ثورنتون ولدر مروراً بـ«الأحلام» للكاتب كيفيدو. لكن سيكون من الصعب إيجاد ما يوازي رؤية رولفو البعيدة المرتبطة مع الوجود الواقعي الثابت، أبعد من ذلك إذ ليست ذكريات هذه الحياة، هي فقط ما نشعر به»، كما غامر بالقول كاموئس في إحدى قصائده، وإنما حيث تمتد تجارب الدنيويات بشكل طبيعي أكثر، في الوقت نفسه الذي يبقى فيه الموت محتملاً بوصفه حالةً «طبيعية».

وبدون شك فأن شخصية بيدرو بارامو، هي النواة الأساسية المهمة في الرواية، فبعد وفاة خوان برثيادو الذي تبعه الحوار الهادئ مع دوروتيا، تظهر متعددة الإشارات إلى بيدرو، وخاصة عندما ينتهي الحوار بين آخر شخصيتين، في المشهد الذي يتدخل فيه فلكورس دانوا (الوكيل)؛ ميغيل (ابن بيدرو)؛ داميانا (الخادمة)، وبدرو نفسه، الذي هو مركز الشخصيات في إبعاده بوصفه سيداً إقطاعياً ويحل مشكلة خطيرة للعنف مرتكبة ضد الأقلية- حينما قام ابنه ميغيل بقتل أحد المزارعين- متدخلاً بهذه الكلمات: "هؤلاء الناس لا وجود لهم" وسنعرف في ما بعد ردة فعله عندما يتوفى ميغيل بسبب حصان: لا يشك في أن يقع على عاتقه دفع الدين الذي عليه مع العالم، لكن "لم يشعر بتأنيب الضمير».

الهوامش

-1 برناردو دي بالبوينا: ولد سنة 1562 في طليطلة؛ وتوفي عام 1627 في بورتو ريكو. كان شاعراً اسبانياً وكنائسي مشهور. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة سيكونثا سنة 1607؟ ونشر بعد عام روايته الرعوية "العصر الذهبي في غابات ازميلي" التي مدح فيها مدينة المكسيك.

-2 لويس هارس: كاتب وصحفي شيلي، ولد سنة 1936مؤلف عمل "أملاكنا" عام 1966. معروف بأعمال جمع الأخبار والنقد الأدبي، خلال سنوات الستينيات من القرن الماضي؛ وهو أول مكتشف لما يعرف بـ(بوم أمريكا اللاتينية).

-3 لوثيانوس دي ساموساتا: كان أديباً وبليغاً سوري الأصل، عاش في القرن الثاني الميلادي عرف بكتاباته باللغة اليونانية القديمة. ولد سنة 125 في مدينة سميساط على الفرات في شمال سوريا وتوفي سنة 180. برع في فن الفكاهة، و ينتمي إلى ما يسمى بالسلفية.

-4 فرانثيسكو غوميث دي كيفيدو : سياسي وكاتب إسباني (1580-1645) برز في العصر الذهبي الإسباني، كان واحداً من أبرز الشعراء الأسبان في ذاك العصر.

-5 لويس دي كاموئس: كاتب وشاعر برتغالي معروف1524-1580 كتب بعض القصائد في اللغة القشتالية. أيضاً له مؤلفات في المسرح.